Conference Proceedings: Enhancing the Role of Islamic, Social, and Human Studies in Building Society, Volume 23/1, July 2026.

ISSN(Print): 1813-4521 OnIline ISSN:2663-7502
Journal Of the Iraqia University
available online at
https://iasj.rdd.edu.iq/journals/journal/view/247

اثر التنمية الفكرية في الارتقاء الحضاري وتشكيل أنماط حياة الإنسان المعاصر

م.م مروه عبد الستار شهاب احمد
جامعة بغداد/ كلية العلوم الاسلامية
ا.م.د محمد احمد حسين
جامعة دجلة / كلية القانون
ا.د. عمار باسم صالح
كلية العلوم الاسلامية /جامعة بغداد

The impact of intellectual development on civilizational advancement and shaping the lifestyles of contemporary humans

M.M. Marwa Abdel Sattar Shehab Ahmed
University of Baghdad / College of Islamic Sciences
marwa.a@cois.uobaghdad.edu.iq
Prof. Dr. Muhammad Ahmed Hussein
mohammed.ahmad@duc.edu.iq
dijla University / College of Law
. Ammar Bassem Saleh
College of Islamic Sciences / University of Baghdad
Amar.saleh@cois.uobaghdad.edu.iq

ملخص البحث

يعالج هذا البحث العلاقة الجدلية بين التنمية الفكرية والارتقاء الحضاري وتشكيل أنماط حياة الإنسان المعاصر، منطلقاً من فرضية مفادها أن أزمة الأمة الحضارية وتشوه أنماط حياتها تعود في جوهرها إلى خلل في منظومة تنمية الفكر .انطلق البحث من تأصيل مفهوم التنمية الفكرية بوصفها عملية بناء العقل الناقد المنتج، القائم على التكامل بين الوحي والعقل والواقع، والمتجاوز للحفظ والتقليد إلى الفهم والاجتهاد، ثم تناول مفهوم الارتقاء الحضاري كحركة صعود للأمة في مدارج العمران والقيم، مرتبطاً بفقه السنن الربانية في الصعود والهبوط. وبيّن أن أنماط الحياة هي الترجمة السلوكية العملية للنسق الفكري والقيمي الذي يحمله الإنسان.كشفت النتائج أن العلاقة بين المتغيرات الثلاثة علاقة تفاعلية دائرية: فالتنمية الفكرية شرط لازم للارتقاء الحضاري، والارتقاء الحضاري يوفر البيئة الحاضنة لترشيد أنماط الحياة، ونمط الحياة الراشد يعيد تغذية الفكر بالإيجاب، كما بيّن البحث أن ضعف الملكة النقدية وتوقف الاجتهاد ينتج "القابلية للاستعمار" الفكري، فيدخل الأمة في دائرة التبعية الحضارية التي تعمق العجز الفكري.وأظهرت الدراسة أن العولمة الرقمية فاقمت أزمة التنمية الفكرية عبر تكريس النمط الاستهلاكي وتسطيح الوعي، وأن النظام التعليمي القائم على التلقين أفرز عقلاً حافظاً لا مفكراً، كما أن القطيعة مع فقه السنن الحضارية أدت إلى استبدال العمل المنهجي بالشعارات.وخلص البحث إلى أن استعادة المبادرة الحضارية تتطلب مشروعاً متكاملاً للتنمية الفكرية يعيد بناء العقل المسلم، ويحرره من التبعية، ويمكنه من إنتاج نموذج حضاري خاص وأنماط حياة أصيلة قادرة على المنافسة العالمية، انطلاقاً من مرجعية الوحي واستيعاب الواقع واستشراف المستقبل.

الكلمات المفتاحية(التنمية الفكرية، الارتقاء الحضاري، أنماط الحياة، الإنسان المعاصر)

Research Summary
This research addresses the dialectical relationship between intellectual development, civilizational advancement, and the shaping of contemporary human lifestyles. It begins with the premise that the nation's civilizational crisis and the distortion of its lifestyles stem fundamentally from a deficiency in its intellectual development system.The research starts by establishing the concept of intellectual development as the process of building a productive, critical mind, based on the integration of revelation, reason, and reality, and moving beyond rote memorization and imitation to understanding and independent reasoning. It then examines the concept of civilizational advancement as the nation's ascent through the stages of civilization and values, linked to understanding the divine laws governing rise and fall. The research demonstrates that lifestyles are the practical behavioral manifestations of the intellectual and value system that individuals possess. The results revealed a cyclical, interactive relationship between the three variables: intellectual development is a prerequisite for civilizational advancement, civilizational advancement provides a nurturing environment for rationalizing lifestyles, and a mature lifestyle positively nourishes thought. The research also showed that a weakness in critical thinking and a cessation of independent reasoning (ijtihad) produce intellectual "susceptibility to colonization," drawing the nation into a cycle of civilizational dependency that deepens intellectual stagnation.The study demonstrated that digital globalization has exacerbated the crisis of intellectual development by entrenching consumerism and superficializing awareness. Furthermore, the educational system based on rote learning has produced a mind that memorizes rather than thinks. The disconnect from the jurisprudence of civilizational norms has led to the replacement of systematic work with slogans.. Keywords (Intellectual development, Civilizational advancement, Lifestyles, Contemporary man(

المقدمة

الحمد لله الذي أكرم الإنسان بالعقل وجعله ميزان التكليف ووسيلة الاستخلاف في الأرض، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.إن الحضارات الكبرى في التاريخ لم تنشأ من وفرة الموارد وحدها، بل سبقتها نهضة فكرية حررت العقول من الجمود وأطلقت طاقات الإبداع والتساؤل، فالفكر هو الذي يصوغ رؤية الإنسان للكون والحياة، ويضبط بوصلته القيمية، ويحدد مساره في العمران، وحين تضعف ملكة التفكير وتضطرب منظومة القيم، يختل ميزان الحضارة وتتشوه أنماط الحياة، فيتحول الإنسان من فاعل منتج إلى مستهلك تابع. ويعيش الإنسان المعاصر اليوم في عالم تتصارع فيه النماذج وتتسارع فيه التحولات، حتى غدت أنماط حياته أسيرة لقوى تصنع ذوقه وتوجه سلوكه من خارجه، هذا الواقع يفرض العودة إلى الجذر المؤسس: الفكر. فلا ارتقاء حضاري دون عقل ناقد منتج، ولا نمط حياة راشد دون منظومة فكرية راشدة.من هذا المنطلق يأتي هذا البحث ليعالج الصلة الوثيقة بين التنمية الفكرية والارتقاء الحضاري وتشكيل أنماط حياة الإنسان المعاصر ،ومن أجل ما تقدم اخترنا هذا البحث، محاولين إماطة اللثام عن الموضوع بتجرد كبير .واقتضت خطة البحث تقسيمه على مقدمة و وثلاثة مباحث وخاتمة، تناولنا في المقدمة السبب من وراء اختيار عنوان البحث، وخصصنا المبحث الأول مخصصا لتعريف مفردات البحث، وجعلنا المبحث الثاني عن المرتكزات النظرية للتنمية الفكرية والارتقاء الحضاري، اما المبحث الثالث تكلمنا فيه عن العلاقة التفاعلية بين التنمية الفكرية والارتقاء الحضاري وتشكيل أنماط الحياة ، وأما الخاتمة فقد أوجزنا فيها أهم نتائج البحث وما توصلنا إليه .

أهمية البحث

١- يركز البحث على التنمية الفكرية بوصفها العامل المؤسس للنهضة، بدل الاكتفاء بمعالجة مظاهر التخلف الحضاري والتشوه السلوكي.
٢- يأتي في ظل هيمنة أنماط حياة استهلاكية وافدة، واغتراب الإنسان المعاصر عن هويته، مما يستدعي إعادة بناء العقل المسلم.
٣- يسد فجوة في الدراسات التي فصلت بين التنظير الفكري والتحليل الحضاري والممارسة السلوكية اليومية.
٤- يقدم أرضية علمية للمؤسسات التربوية والدعوية لإعادة صياغة الإنسان القادر على إنتاج نموذجه الحضاري.
٥- يعيد الاعتبار لمرتكزات التنمية الفكرية في التصور الإسلامي القائم على التكامل بين الوحي والعقل والعمل.

إشكالية البحث

١- تعيش الأمة الإسلامية تناقضاً بين وفرة المخزون التراثي والمعرفي، واستمرار حالة التبعية الحضارية والاستهلاك الثقافي.
٢- هيمنة أنماط حياة مادية مستوردة على سلوك الإنسان المعاصر، أدت إلى تفكك قيمي واغتراب اجتماعي رغم المظاهر التقنية.
٣- غياب الرؤية الواضحة للعلاقة التفاعلية بين تخلف التنمية الفكرية والانحدار الحضاري وتشوه أنماط الحياة.
٤- تحول المعرفة في الواقع التعليمي إلى معلومات متراكمة بلا ملكة نقدية، فأنتجت عقلاً حافظاً لا منتجاً.

٥- عجز النخب الفكرية عن تقديم استجابة ملهمة لتحديات العصر، مما كرس "القابلية للاستعمار" فكرياً وسلوكياً.

أهداف البحث

١- التأصيل المفاهيمي لمصطلحات التنمية الفكرية والارتقاء الحضاري وتشكيل أنماط حياة الإنسان المعاصر.

٢- بيان المرتكزات النظرية للتنمية الفكرية في الفكر الإسلامي، وعوامل الصعود والهبوط الحضاري في الفكر الإنساني.

٣- كشف آليات تأثير التنمية الفكرية في تشكيل النسق القيمي والسلوكي للإنسان المعاصر.

٤- توضيح العلاقة التفاعلية الدائرية بين التنمية الفكرية والارتقاء الحضاري وتشكيل أنماط الحياة.

٥- تقديم إطار نظري يساعد على فهم الخلل الراهن، ويؤسس لتصور استشرافي لتنمية فكرية منتجة للنهضة.

أسئلة البحث

١- ما المقصود بالتنمية الفكرية وما أبرز مرتكزاتها في التصور الإسلامي؟

٢- ما مفهوم الارتقاء الحضاري وما أهم عوامل الصعود والانحدار الحضاري عند المفكرين؟

٣- كيف تشكل التنمية الفكرية أنماط حياة الإنسان المعاصر على مستوى القيم والسلوك والاستهلاك؟

٤- ما مظاهر الخلل في أنماط حياة الإنسان المعاصر، وما صلتها بأزمة التنمية الفكرية؟

٥- كيف يتكامل الارتقاء الحضاري مع تشكيل أنماط الحياة الراشدة في ضوء التنمية الفكرية؟

المبحث الاول: التعريف بمفردات البحث

المطلب الأول: تعريف التنمية الفكرية

أولاً: التنمية لغةً

جاء في معجم مقاييس اللغةأن مادة "نما" تدل على "الزيادة والارتفاع" (ابن فارس، ١٩٧٩، ٥/ ٤١٣)، وفي المعجم الوسيط: "نما الشيء نماءً: زاد وتكاثر، ويقال نمّاه تنميةً: جعله ينمو" (مجمع اللغة العربية، ٢٠٠٤، ٩١٠)، فالتنمية في أصلها اللغوي هي تفعيل النماء وجعله مقصوداً بالتزايد التدريجي.

ثانياً: الفكر لغةً

الفكر من "فَكَرَ" وهو "إعمال النظر في الشيء" (ابن فارس، ١٩٧٩، ٤/ ٤٥٤). وقال الجوهري: "التفكير: التأمل، والاسم الفِكر، والفِكرة" (الجوهري، ١٩٨٧، ٢/ ٧٨٣). فهو جهد عقلي وحركة بين المعلوم والمجهول لإدراك العلاقات والنتائج.

ثالثاً: التنمية الفكرية اصطلاحاً

تُعرّف التنمية الفكرية بأنها "عملية منظمة ومستمرة تهدف إلى الارتقاء بملكة التفكير لدى الإنسان، وتنمية قدراته العقلية والنقدية والإبداعية" (المالكي، ٢٠١٨، ٢٧)، كما أنها "تحويل العقل من حالة الاستقبال السلبي للمعرفة إلى حالة الإنتاج الإيجابي لها، عبر غرس مناهج الاستدلال ومهارات حل المشكلات" (النجار، ٢٠١٥، ٦٢)، فهي انتقال من عقلية التلقي إلى عقلية البناء والإنتاج المعرفي.

المطلب الثاني: تعريف الارتقاء الحضاري

أولاً: الارتقاء لغةً

مادة "رقي" تدل على الصعود. قال ابن منظور: "رَقِيَ في السُّلَّمِ يَرْقَى رُقِيًّا: صَعِدَ" (ابن منظور، ١٩٩٣، ١٤/ ٣٣٢)، وجاء في تاج العروس: "الارتقاء: الترقي في الدرجات، وهو أبلغ من الصعود" (الزبيدي، ١٩٦٥، ٣٨/ ١٠٥)، فالارتقاء صعود نوعي من درجة دنيا إلى درجة أعلى.

ثانياً: الحضارة لغةً

الحضارة ضد البداوة، وهي "الإقامة في الحضر" (الفيروزآبادي، ٢٠٠٥، ٤٢٢)، وقال ابن خلدون: "الحضارة هي التفنن في الترف واستجادة أحواله" (ابن خلدون، ٢٠٠٥، ١/ ٣٣٩)، أي طور الاستقرار والعمران بعد البداوة.

ثالثاً: الارتقاء الحضاري اصطلاحاً

يُعرّف الارتقاء الحضاري بأنه "انتقال المجتمع من طور أدنى إلى طور أعلى في مجالات الفكر والقيم والعمران" (الطالبي، ٢٠٠١، ٨٥)، ويرى علال الفاسي أنه "تحقيق التوازن بين الروح والمادة، بحيث تنمو القيم مع نمو العمران، ولا يطغى جانب على آخر" (الفاسي، ١٩٩٣، ١١٢)، فهو ليس تقدماً تقنياً مجرداً، بل نضج قيمي ومعرفي يحقق التمكين والشهود الحضاري.

المطلب الثالث: تعريف تشكيل أنماط حياة الإنسان المعاصر

أولاً: التشكيل لغةً

الشَّكْل: "الشَّبَه والمِثْل"، وشكَّل الشيء أي "صوَّره" (ابن فارس، ١٩٧٩، ٣/ ٢٠٦)، وفي المعجم الوسيط: "شكَّل الشيء: صوَّره وأعطاه شكلاً معيناً" (مجمع اللغة العربية، ٢٠٠٤، ٤٩٣)، فالتشكيل هو إعطاء الصورة والهيئة المخصوصة وإخراج الشيء من القوة إلى الفعل.

ثانياً: النمط لغةً

النَّمَط: "الضَّرْبُ من الشيء والطريقة" (ابن منظور، ١٩٩٣، ٣٢٣)، وقيل: "النَّمط: الجماعة من الناس أمرهم واحد" (الزبيدي، ١٩٦٥، ١٥٦)، فهو يدل على النسق المتكرر المشترك والطريقة الواحدة.

ثالثاً: الحياة لغةً

الحياة ضد الموت، وهي "النمو والبقاء" (الفيروزآبادي، ٢٠٠٥، ١٢٩٨)، وقال الراغب الأصفهاني: "الحياة تستعمل في القوة النامية الموجودة في النبات والحيوان" (الأصفهاني، ١٩٩٢، ٢٦٩)، فهي مظنة الحركة والفعل والبقاء.

رابعاً: الإنسان المعاصر اصطلاحاً

الانسان المعاصر كما يربكار هو ابن الزمان الحاضر الذي يعيش تحولات الثورة الصناعية الرابعة والرقمنة والعولمة (بكار، ٢٠١٦، ١٥)، وعرّفه المسيري بأنه "الإنسان الذي تشكل وعيه عبر وسائط الإعلام الجديدة، وصار جزءاً من شبكة علاقات عالمية متداخلة" (المسيري، ٢٠٠٢، ٣٣)، فهو نتاج سياقات تقنية وثقافية جديدة.

خامساً: تشكيل أنماط حياة الإنسان المعاصر اصطلاحاً

يُقصد به "مجموع الطرق والأساليب التي يعيش بها الإنسان في العصر الحالي، بما في ذلك قيمه وعاداته الاستهلاكية وعلاقاته الاجتماعية" (عودة، ٢٠١٩، ٦٣)، ويعرفه علماء الاجتماع بأنه "النسق الكلي للأنشطة اليومية والخيارات الاستهلاكية والقيمية التي تميز فرداً أو جماعة في سياق حداثي معين" (الخواجة، ٢٠٢١، ٤١)، فالنمط هو التعبير الظاهر عن الفكر الكامن، ويخضع لتأثير الفكر الذي يمنح النمط مضمونه وقيمته.

المبحث الثاني: المرتكزات النظرية للتنمية الفكرية والارتقاء الحضاري

المطلب الأول: مرتكزات التنمية الفكرية في الفكر الإسلامي

تقوم التنمية الفكرية في التصور الإسلامي على أسس عقدية ومعرفية تجعلها مختلفة عن النماذج المادية.

أولها: مركزية الوحي، فالعقل ليس حاكماً مطلقاً، بل هو آلة فهم الوحي. قال الشاطبي: "إذا تعاضد النقل والعقل على المسائل الشرعية، فعلى شرط أن يتقدم النقل" (الشاطبي، ١٩٩٧، ٢٩٩/٢)، فالتنمية الفكرية تبدأ بتحرير العقل من الهوى، لا من الوحي.

ثانيها: مقصد الاستخلاف، فالغاية من تنمية الفكر هي تمكين الإنسان من أداء وظيفة الاستخلاف وعمارة الأرض {هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا} [هود: ٦١]، فالفكر ليس للترف الذهني، بل للإنتاج الحضاري (النجار، ٢٠١٥، ١٠٤).

ثالثها: التكامل بين العقل والنقل والتجربة، فالمنهج الإسلامي يرفض أحادية المصدر المعرفي. وهذا التكامل هو الذي أنتج الحضارة الإسلامية في عصورها الذهبية (الندوي، ٢٠٠٣، ١٥٦).

رابعها: الربط بين العلم والعمل، فلا قيمة لفكر لا يتحول إلى سلوك وممارسة، قال الغزالي: "العلم بلا عمل جنون، والعمل بلا علم لا يكون" (الغزالي، ٢٠٠٥، ٣٤)، وأكد الخطيب البغدادي: "العلم يهتف بالعمل، فإن أجابه وإلا ارتحل" (الخطيب البغدادي، ١٩٨٣، ٤٤).

خامسها: الانفتاح الحضاري المنضبط، فالتنمية الفكرية الإسلامية تأخذ الحكمة من أي وعاء خرجت، لكنها تُفلترها عبر ميزان الوحي (بن نبي، ٢٠٠٠، ١٢١)، وأي تنمية فكرية تتجاهل هذه المرتكزات تتحول إلى تقليد للآخر، فتنتج عقلاً مستهلكاً لا منتجاً (المسيري، ٢٠٠٢، ٣٠١).

المطلب الثاني: عوامل الارتقاء والانحدار الحضاري في الفكر الإنساني

لم تنشأ الحضارات من فراغ، ولم تسقط فجأة. وقد اجتهد المفكرون في تحديد عوامل الصعود والهبوط،عند ابن خلدون الدورة الحضارية تبدأ بالبداوة والقوة والعصبية، ثم تنتقل للترف والغلبة، ثم تنتهي بالضعف والانحلال إذا طغى الترف وفسدت الأخلاق (ابن خلدون، ٢٠٠٥، ١٥٩)، فالعامل الفكري والأخلاقي هو محرك الدورة.

اما مالك بن نبي يشخص "القابلية للاستعمار" كمرض فكري يسبق الاستعمار العسكري، فالأمة التي تفقد "شبكة علاقاتها الاجتماعية" و"فعالية أفكارها" تسقط حضارياً ولو ملكت الموارد (بن نبي، ٢٠٠٠، ص٧٣).

واما عند الطالبي: الحضارة ترتقي عندما تحقق التوازن بين المادة والروح، وتنهار حين يطغى الجانب المادي على القيمي (الطالبي، ٢٠٠١، ١٤٣)، و عبد الوهاب المسيريقول: الارتقاء مرتبط بالقدرة على مقاومة "العلمنة الشاملة" التي تفكك الإنسان وتحوّله إلى مادة استهلاكية (المسيري، ٢٠٠٢، ٤١٥)، وعند علال الفاسي: هي الانحدار يبدأ من "النقد الذاتي" المفقود، فالأمة التي لا تراجع نفسها فكرياً تسقط (الفاسي، ١٩٩٣، ١٨٨)، والقاسم المشترك بين هذه الرؤى أن انهيار الفكر والقيم يسبق انهيار العمران.

المطلب الثالث: مظاهر الخلل في أنماط حياة الإنسان المعاصر

التنمية الفكرية اليوم تواجه تشوهات أنتجت أنماط حياة مضطربة، أبرزها: النمط الاستهلاكي: تحول الإنسان من "كائن منتج" إلى "كائن مستهلك" تقاس قيمته بما يملك لا بما ينتج (الخواجة، ٢٠٢١، ٦٧، المسيري، ٢٠٠٢، ٢٥٠)، فصار التسوق علاجاً للفراغ الوجودي.

اما التفكك القيمي: سيادة النسبية الأخلاقية، وانفصال الحرية عن المسؤولية، فصار نمط الحياة يتشكل وفق الهوى الفردي لا وفق الغاية الوجودية (المسيري، ٢٠٠٢، ٢١٠، الفاسي، ١٩٩٣، ١٨٨)، فانهارت الأسرة وضعف معنى التضامن.

والاغتراب الرقمي: هو هيمنة العالم الافتراضي على الواقع، مما أنتج عزلة اجتماعية وتسطيحاً فكرياً، فصار الإنسان المعاصر "متصلاً تقنياً ومنفصلاً إنسانياً" (بكار، ٢٠١٩، ٣٣).

اما نمط السرعة القاتلة: فهو من حيث لا وقت للتأمل أو بناء العلاقات العميقة، فكل شيء سريع (بكار، ٢٠١٦، ١٣١).

واما نمط التمركز حول الذات: فصار الفرد محور الكون، وتضخمت الأنا على حساب الجماعة والقيم العليا (الخواجة، ٢٠٢١، ٨٨، السويدان، ٢٠٢٠، ٩١)، هذا الخلل في نمط الحياة هو دليل على أزمة في التنمية الفكرية. فالمجتمع الذي يفقد القدرة على إنتاج فكره، يفقد القدرة على إنتاج نمط حياته (بن نبي، ٢٠٠٠، ٤٤).

المبحث الثالث: العلاقة التفاعلية بين التنمية الفكرية والارتقاء الحضاري وتشكيل أنماط الحياة

المطلب الأول: التنمية الفكرية كمحرك أساسي للارتقاء الحضاري

التنمية الفكرية ليست ترفاً معرفياً، بل هي الشرط المؤسس لأي نهضة حضارية. فالحضارة لا تُبنى بالآلة قبل أن تُبنى بالفكرة. يرى مالك بن نبي أن "المشكلة الحضارية هي مشكلة أفكار قبل أن تكون مشكلة وسائل" (بكار، ٢٠١٦، ٤٨). فالفكر هو الذي يحدد رؤية الإنسان للكون والحياة، ويضبط بوصلته القيمية ، وعليه فإن الارتقاء الحضاري يبدأ عندما يتحرر العقل من الجمود والتقليد، ويمتلك القدرة على النقد والإبداع والتجديد (الجابري، ٢٠٠٩، ٢٠١)، وقد أثبت تاريخ الحضارة الإسلامية أن أزهى عصورها كان مقترناً بازدهار الحركة الفكرية والعلمية (عثمان، ٢٠١٧، ٩٣)، فبيت الحكمة في بغداد سبق بناء الجسور والقصور ،والعكس صحيح: عندما جمد الفكر وتوقفت حركة الاجتهاد، بدأ الانحدار الحضاري ولو بقيت المظاهر العمرانية زمناً (ابن خلدون، ٢٠٠٥، ٢٨١/١؛ الطالبي، ٢٠٠١، ١٩٧)، فالفكر السليم ينتج منظومة قيمية تدفع نحو العمران، والفكر السقيم ينتج تخلفاً ولو توفرت الموارد (السويدان، ٢٠٢٠، ٦٣)، فاليابان نهضت بلا نفط، والدول الغنية تخلفت بالفكر المستهلك (بكار، ٢٠١٦، ١٣٩). فلا نهضة بلا نهضة فكرية تسبقها، ولا ارتقاء بلا عقل ينتج الأسئلة قبل الأجوبة (المالكي، ٢٠١٨، ٤١).

المطلب الثاني: آليات تأثير التنمية الفكرية في تشكيل أنماط حياة الإنسان المعاصر

أنماط الحياة ليست معطى جامداً، بل هي انعكاس مباشر للمنظومة الفكرية السائدة. فالتنمية الفكرية تؤثر في نمط حياة الإنسان المعاصر عبر ثلاث آليات رئيسة:

أولاً: تشكيل النسق القيمي، فالفكر هو الذي يحدد للإنسان ما هو "مهم" وما هو "تافه"، فالتنمية الفكرية القائمة على مقصد "التزكية" تنتج نمط حياة متزناً في الاستهلاك والعلاقات، بينما الفكر المادي ينتج نمطاً استهلاكياً شرهاً (السويدان، ٢٠٢٠، ٤١، عودة، ٢٠١٩، ٢٠١)، فالذي يؤمن بالآخرة يختلف نمط إنفاقه عن المادي (الغزالي، ٢٠٠٥، ٢٩٨/٣).

ثانياً: تحديد نمط التفكير والسلوك، فالإنسان يتصرف بناءً على ما يفكر فيه. فالعقل النقدي الذي تنتجه التنمية الفكرية يجعل الإنسان واعياً بالرسائل الإعلامية والإعلانية، فلا ينساق خلف أنماط الحياة المصنّعة (الخواجة، ٢٠٢١، ١١١). فالواعي يسأل "لماذا أشتري؟"، والغافل يشتري لأن الإعلان أمره (المسيري، ٢٠٠٢، ٢٧٩).

ثالثاً: إعادة تعريف مفهوم النجاح والسعادة، فالتنمية الفكرية الأصيلة تربط السعادة بتحقيق غاية الوجود وعمارة الأرض، لا بتكديس الممتلكات (الفاسي، ١٩٩٣، ٢٠١).

رابعاً: صناعة الإرادة والانضباط، فالفكر الراشد يحوّل القناعات إلى عادات، والعادات إلى نمط حياة (الندوي، ٢٠٠٣، ٣٠١)، فالصيام مثلاً فكرة تحولت إلى عبادة ثم إلى نمط في ضبط الشهوات (المالكي، ٢٠١٨، ٣٦)، وهذا ينتج نمط حياة يغلب عليه العطاء والإنتاج بدل الاستهلاك والترف، فالفكر أولاً، ثم السلوك، ثم النمط، ثم الحضارة (بن نبي، ٢٠٠٠، ٨٩).

المطلب الثالث: التكامل بين الارتقاء الحضاري وتشكيل أنماط الحياة في ضوء التنمية الفكرية

الارتقاء الحضاري وتشكيل أنماط الحياة ليسا مسارين منفصلين، بل هما وجهان لعملة واحدة يحركها الفكر، فلا يمكن لمجتمع أن يرتقي حضارياً وأفراده يعيشون أنماط حياة منحطة قيمياً واستهلاكياً (المسيري، ٢٠٠٢، ٥٠٢)، كما لا يمكن لفرد أن يعيش نمط حياة راقياً في محيط حضاري متخلف (ابن خلدون، ٢٠٠٥، ٣٤١/١)، لذلك فإن التنمية الفكرية تعمل على مستوى "الكل" و"الجزء" معاً: فهي ترفع مستوى الوعي الجمعي لينتج حراكاً حضارياً، وفي الوقت نفسه تهذب سلوك الفرد لينتج نمط حياة يليق بإنسانيته (بكار، ٢٠١٦، ٢٠١، عثمان، ٢٠١٧، ١٨٨)، وهذا هو معنى "العمران" عند ابن خلدون الذي يجمع بين "الاجتماع البشري" و"أحوال المعاش" (ابن خلدون، ٢٠٠٥، ٤١/١، الجابري، ٢٠٠٩، ١١٦)والعلاقة دائرية: الفكر الراشد ينتج نمط حياة راشداً، ونمط الحياة الراشد ينتج بيئة حاضنة للارتقاء الحضاري، والارتقاء الحضاري يعزز الفكر ويغذيه (الطالبي، ٢٠٠١، ٢١١)،والخلل في أي حلقة يكسر الدائرة: فكر سقيم ينتج استهلاكاً، والاستهلاك ينتج تخلفاً، والتخلف ينتج فكراً أعجز (بن نبي، ٢٠٠٠، ١٣١، النجار، ٢٠١٥، ١٧٨)، وبالتالي فالهدف النهائي للتنمية الفكرية هو إنتاج "الإنسان الحضاري" الذي يمتلك عقلاً منتجاً، ويداً عاملة، وقيماً راشدة، فيكون لبنة في ارتقاء أمته، ونموذجاً في نمط حياته (السويدان، ٢٠٢٠، ١٨٩، الفاسي، ١٩٩٣، ٢١٤)، فالفكر يصنع الإنسان، والإنسان يصنع الحضارة، والحضارة تصوغ نمط الحياة، ونمط الحياة يشهد على جودة الفكر.

النتائج

بعد هذه الرحلة الماتعة في ثنايا الكتب والدراسات الفكرية والفلسفية لا بد أخيرا من وقفة تأمل واستذكار لما حققه البحث من مقاصد وما توصل إليه من نتائج؛ فنقول:

١- النهوض الحضاري لا يتحقق بالموارد المادية وحدها، بل يسبقه ارتقاء في بنية العقل ونسق المفاهيم والقيم، فالفكر هو المولد الحقيقي للحضارة.

٢- تتأسس التنمية الفكرية في التصور الإسلامي على التزاوج بين النص والعقل والواقع، وعلى منهجية نقدية تتجاوز الحفظ إلى الفهم، والتقليد إلى الاجتهاد.

٣- يخلق ضعف الملكة النقدية وتوقف الاجتهاد حالة "القابلية للاستعمار" الفكري، مما يؤدي إلى تبعية حضارية تعمق بدورها العجز الفكري في دائرة مغلقة.

٤- أنماط حياة الإنسان المعاصر في استهلاكه وقيمه وعلاقاته ليست إلا ترجمة عملية لمنظومته الفكرية، فتشوه السلوك انعكاس مباشر لتشوه التصور.

٥- أسهمت أدوات الإعلام الجديد في تكريس نمط حياة استهلاكي مادي، وتسطيح الوعي، وتحويل الإنسان من منتج للفكر إلى مستهلك للمعلومة الجاهزة.

٦- أهمل الخطاب المعاصر فقه السنن الربانية في الصعود والهبوط الحضاري، مما أدى إلى استبدال العمل المنهجي بالأمنيات والشعارات.

٧- التنمية الفكرية تنتج ارتقاءً حضارياً، والارتقاء الحضاري يوفر بيئة حاضنة لترشيد أنماط الحياة، ونمط الحياة الراشد يعيد تغذية الفكر بالإيجاب والعكس صحيح.

٨- تحوّل النظام التعليمي إلى تلقين وحشو معلوماتي أفرز عقلاً حافظاً لا مفكراً، فعجز عن إنتاج المعرفة وتشكيل نموذج حضاري خاص.

٩- استعادة المبادرة الحضارية تتطلب مشروعاً للتنمية الفكرية يعيد بناء العقل المسلم، ويحرره من التبعية، ويمكّنه من إنتاج أنماط حياة أصيلة قادرة على المنافسة العالمية.

المصادر

القرآن الكريم

١. ابن خلدون، ع. (٢٠٠٥). المقدمة . الدار البيضاء، المغرب: بيت الفنون والعلوم.

٢. ابن فارس، أ. (١٩٧٩). معجم مقاييس اللغة. بيروت، لبنان: دار الفكر.

٣. ابن منظور، م. (١٩٩٣). لسان العرب. بيروت، لبنان: دار صادر.

٤. الأصفهاني، ر. (١٩٩٢). المفردات في غريب القرآن.بيروت. دار القلم.
٥. بكار، ع. ك. (٢٠١٦). تكوين المفكر. القاهرة، مصر: دار السلام.
٦. بكار، ع. ك. (٢٠١٩). عصرنا والعيش في زمانه الصعب. القاهرة، دار السلام.
٧. بن نبي، م. (٢٠٠٠). شروط النهضة. دمشق، سوريا: دار الفكر.
٨. الجابري، م. ع. (٢٠٠٩). بنية العقل العربي. بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية.
٩. الجوهري، إ. (١٩٨٧). الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية. بيروت: دار العلم للملايين.
١٠.الخطيب البغدادي، أ. (١٩٨٣). اقتضاء العلم العمل. بيروت،المكتب الإسلامي.
١١.الخواجة، م. (٢٠٢١). سوسيولوجيا أنماط الحياة. الدوحة، قطر: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات.
١٢.الزبيدي، م. (١٩٦٥). تاج العروس من جواهر القاموس.الكويت: دار الهداية.
١٣.السويدان، ط. (٢٠٢٠). صناعة الثقافة. الكويت: شركة الإبداع الفكري.
١٤.الشاطبي، إ. (١٩٩٧). الموافقات.الخبر، السعودية: دار ابن عفان.
١٥.الطالبي، م. (٢٠٠١). عيال الله: أفكار جديدة في علاقة المسلم بنفسه وبالآخرين. دمشق، سوريا: دار الفكر.
١٦.عثمان، ف. (٢٠١٧). النهضة الإسلامية في سير أعلامها المعاصرين. لبنان: دار القلم.
١٧.عودة، س. (٢٠١٩). فقه التحولات. بيروت، مركز نماء للبحوث والدراسات.
١٨.الغزالي، أ. ح. (٢٠٠٥). إحياء علوم الدين. جدة، السعودية: دار المنهاج.
١٩.الفاسي، ع. (١٩٩٣). النقد الذاتي. الرباط، المغرب: مطبعة الرسالة.
٢٠.الفيروزآبادي، م. (٢٠٠٥). القاموس المحيط. بيروت، لبنان: مؤسسة الرسالة.
٢١.المالكي، ع. (٢٠١٨). التنمية الفكرية: المفهوم والآليات. مجلة جامعة أم القرى للعلوم الاجتماعية، ١٠_(٢)، ٢٥-٤٨. مكة المكرمة، السعودية: جامعة أم القرى.
٢٢.مجمع اللغة العربية. (٢٠٠٤). المعجم الوسيط. القاهرة، مكتبة الشروق الدولية.
٢٣.المسيري، ع. و. (٢٠٠٢). العالم من منظور غربي. القاهرة، دار الهلال.
٢٤.النجار، ع. (٢٠١٥). تجديد العقل العربي. دمشق، سوريا: دار الفكر.
٢٥.الندوي، أ. ا. (٢٠٠٣). ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين. دمشق،دار ابن كثير.